مجلة المرابط

العدد : ١٩١ الموافق في صفر ١٤١٨ هجري ٧ / ١٩٩٧ ميلادي

حديث في البناء : شخصية المسلم بين العقل والعاطفة – ١–	بقلم : محمد العبدة

إن سبب الحديث عن هذه الإشكالية ، هو السؤال المتجدد دائماً : لماذا ينقص حظ كثير من المسلمين من استخدام العقل ؟ ولماذا لم تُنمّ في شخصية المسلم القدرات العقلية التي منحها الله إياها ؟ ولماذا يندفع المسلم بعاطفة مشبوبة لمشاريع ومغامرات سياسية وعسكرية غير مأمونة العواقب ، بل معروفة النتائج وهي الفشل غالباً ؟ وإذا ما نوقش في الأمر أتى بالتبريرات الكثيرة التي لا تعالج أصل المشكلة... ولماذا نرى المدرس في الجامعة أو الطبيب والمهندس يتبعون في بعض البلدان شيخاً جاهلاً ويصدقون بكل ما يتحدث به من خرافات ؟!

إن هذا الخلل في استعمال القدرات العقلية ليس جديداً ، بل هو داء قديم ، مما جعل مصلحاً كبيراً كشيخ الإسلام ابن تيمية يكتب عشر مجلدات حول « درء تعارض العقل والنقل ». وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده يستعمل الفعل (يعقلون) (ومايعقلها) ولم يستعمل لفظة (عقل) وذلك لأن العقل ليس جسماً قائماً بنفسه كما كان يظن الفلاسفة الأقدمون ، بل هو وظيفة وأداة مثل السمع والبصر ، يعتريه النشاط والعجز ، كما يعتري وظائف الإنسان الأخرى ، يقول ابن تيمية : « العقل يراد به الغريزة التي بها يعقل الإنسان ، وقد يراد به نفس أن يعقل ويتعلم ، والعقل في القلب مثل البصر في العين ».

وقد وردت الإشارة في القرآن إلى القدرات العقلية باعتبارها وظيفة من وظائف القلب { **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** } فجعل السمع للآذان ، والعقل للقلوب ، وكان القلب هنا هو لب الإنسان مقابل تكوينه الخارجي ، وقد عرفه بعضهم بأنه القوة الإدراكية في الإنسان ، فهو العقل الذي يفكر ويتدبر ، ويتبصر العواقب ، وليس العقل الذي يقابله (الجنون) وهو ما يشير إليه قول الله تعالى : { **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** } والخلاصة أنه عندما تطلق لفظة العقل فهي تشمل الأمور التالية :

١- الغريزة التي أوجدها الله في الإنسان ، فتميز بها عن الحيوان ، وعليها مناط التكليف.

٢- العلوم الضرورية التي يتفق عليها جميع العقلاء ، كمعرفة أن الكل أكبر من الجزء ، وأن العشرة أكثر من الخمسة.

٣- علوم مكتسبة ، يحصل عليها الإنسان من خلال المناهج الاستدلالية.

٤- النتيجة العملية لوجود العقل السليم ، أي العمل بموجب العلم ، وهو الذي يوصل الإنسان إلى بدهيات الأمور ، والنجاة من عذاب الله ، وهذا ما أشارت إليه الآية { **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** } وقد وردت آيات كثيرة تمدح استعمال هذه الملكة ، قال الله تعالى : { **ويريكم آياته لعلكم تعقلون** } أي تفقهون أسرار الأحكام ، وفائدة الخضوع للشريعة ، وقال الله تعالى : { **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** } ؛ أي الذين ينظرون في أسبابها ، ويدركون حكمها وأسرارها ، ويميزون بين منافعها ومضارها ، ويستدلون بما فيها من الإتقان على استخقاقه سبحانه للعبودية دون غيره[١] وقد بين الله تعالى في سورة الحشر أن سبب التفرق الذي عمّت به البلوى إنما هو ضعف العقل ، قال الله تعالى : { **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** } ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله : { **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** } ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق ، وتمييز الحق من الباطل ، والنافع من الضار ، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي[٢] كما أشار القرآن إلى القدرات العقلية الموجودة عند الإنسان ، وما عليه إلا أن يستخدمها ، ويضعها في موضعها ، مثل قدرة التدبر ، وهي الربط بين الأسباب والنتائج ، وقدرة التفكير ؛ وهي استعمال المهارات العقلية للوصول إلى الحقيقة ، وقدرة الإبصار التي تساعد على دقة الفهم ، والتعمق في تحليل الظواهر : { **والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** }[٣] ومن خلال الارتباط بالنص القرآني والسنة الصحيحة تدبراً وفهماً قامت في الصدر الأول من تاريخ الإسلام نهضة علمية عظيمة ، كان من آثارها كتاب « الرسالة » للإمام الشافعي الذي أسس فيه علم أصول الفقه ، ثم حدث بعدئذ أن انحسرت هذه القدرات أو ضعفت ، وصار التقليد المذموم والإخلاد إلى الكسل الفكري هو الداء المتفشي في المجتمع الإسلامي. ومن العوامل التي ساعدت على ذلك :

أولاً : ظهور التصوف الذي يعتمد على الذوق والرؤية وعلى الانقياد للشيخ انقياداً أعمى ، وهذا يعني إلغاء دور العقل ، بل يعتبره الصوفية عائقاً من عوائق الطريق ، ومن يقرأ كتب القوم مثل " الطبقات الكبرى " للشعراني ، فسيجد أن المجاذيب والبلهاء مقدمون على العلماء والفقهاء ، حتى أصبحنا سخرية لأهل الأديان المنسوخة كما يقول الإمام الألوسي.

ثانياً : ظهور الفرق التي تؤمن بالإمام المعصوم ، فالإنسان هنا يرتاح من عناء التفكير ، فالإمام هو الذي يفكر عنه وهو الوسيط له ، وهو معصوم فأقواله دائماً صائبة.

ثالثاً : غلبة التقليد في كل شيء ، وفشو التعصب المذهبي ، فعاش الطلبة على المختصرات والحواشي ، يقلدونها ولا يتعبون أنفسهم ليصبحوا علماء مجتهدين ، وبسبب هذه الهمم القاصرة ولأسباب أخرى ليس هنا مجال بحثها ، أغلق باب الاجتهاد ، مما أدى إلى الجمود والبعد عن شؤون الحياة.

رابعاً : عندما غالت بعض الفرق في القديم ، ومن تأثر بهم في الحديث في تعظيم العقل ، وإعطائه فوق ما يستحقه ، وردوا الأحاديث الصحيحة بزعم أنها مخالفة لعقولهم ، ووقعوا في المماحكات النظرية والجدل العقيم ، كانت ردة الفعل عند معارضيهم شديدة ، فحاولوا الابتعاد عن استخدام القدرات العقلية ، وعن كل شيء عقلي ، وأنكروا وجود الحكمة في أفعاله تعالى ، وابتعدوا عن تعليل الأحكام الشرعية ، وفي العصر الحديث نجد أن أمثال هؤلاء أصيبوا بحساسية من كل شيء فيه استعمال للعقل ، فلا يرغبون في التحليل أو التعليل ، وقياس الغائب على الشاهد وغير ذلك مما يساعد على فهم الواقع ، كل ذلك ردة فعل على الذين يسمونهم بـ « العقلانيين ». وكلا الطرفين : الذين يعظمون العقل والذين ردوا عليهم ، ابتعدوا عن منهج أهل السنة ، وربما ظن بعضهم بالقرآن والسنة ظنّ السوء ، واعتقدوا أن هذين المصدرين لا يقدمان الأدلة العقلية البرهانية وإنما الأدلة الخطابية التي تناسب عقل الجمهور ، وهذا خطأ فاحش وجهل بالقرآن والسنة ، يقول الإمام ابن حزم : « هما طرفان : أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل ، والثاني قصّر فخرج عن حكم العقل »

وللحديث بقية إن شاء الله

الحواشي :

(١) تفسير المنار ، ٦٣/٢

(٢) محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان ٤١٦/٣